ROSTOVZEFF, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World.

3 vols. Oxford : Clarendon Press, 1941. p. XXIV+1779. 112 plates ; 11 figures in text. 105.

الأستاذ روستوفتزف عالم روسى الأصل ، ضاقت به بلاده الفسيحة ، أو على الأصح ضاق بها فنزح الى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى أكرمت وفادته مثل ما أكرمت وفادة الكثيرين غيره من العلماء الأوربيين الذين شردهم ما شهدته أوربا من الحركات السياسية العنيفة . ويبدو أنه كان لما صادفه من الحرية فى المهجر رد فعل طبيعى فى نفسه ، فامتازت مؤلفاته هناك بأفكارها الطلية وجرأتها المثيرة . ولعله كان طبيعيا أيضا أنه عند ما طال به المقام فى بلاد الحرية لم يعد عبير الحرية يثير فيه مثل تلك النشوة الأولى ، ولذلك فاننا نفتقد فى كتابه الأخير طلاوة كتبه السابقة وجرأتها ، غير أن هذا الكتاب يمتاز عن تلك الكتب بأن أفكاره أكثر اتزانا واحكامه أصدق معيارا . ومن ثم لا نشك فى أن هذا الكتاب سيبقى على الدهر محتفظا بقيمته العلمية النادرة أكثر من أى كتاب آخر ألفه روستوفتزف .

ولما كان هذا العالم الفذ قد وقف حياته العلمية النشيطة على الدراسات القديمة ،وألم بكافة أنواع مصادرها وعنى عناية خاصة بالناحيتين الاجتماعية والاقتصادية فى العصور القديمة ، فقد توفرت له كل أسباب النجاح فى الاضطلاع بدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الهيلينستى مثل هذه الدراسة المطولة المثمرة . فلا عجب اذن أنه قد أخرج لنا كتابا كبيرا لا فى حجمه فحسب بل كذلك فى دقة أفكاره وغزارة علمه والسهولة التى عولجت بها موضوعات واسعة ومادة هائلة .

واذا كان المؤلف يعتذر فى تصديره بأنه لم يعتمد فى كتابه على ما نشر

بعد عام ١٩٣٨ ، فانه يجب ألا نقبل هذا الاعتذار حرفيا ، اذ يتضح جليا من الاطلاع على الكتاب أن المؤلف قد اعتمد على الكثير مما نشر حتى عام ١٩٤٠ . ويتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء ، خصص اثنان منها للمتن ، والثالث لحواشي نادرة فى قيمتها ، وفهارس للمصادر والمؤلفين والنقوش والأوراق البردية ، وبعض الاضافات والتصحيحات ،وقائمة بالمختصرات . ويضم هذا الجزء أيضا أربعة موضوعات قصيرة بقلم أربعة علماء آخرين . ويتضمن الكتاب مجموعة قيمة من اللوحات ، بعضها لم يسبق نشره وكلها تعين القارىء على تكوين صورة صحيحة عما يقرأه .

وموضوع الكتاب كما مر بنا هو تاريخ الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الهيلينستى ، أى منذ وفاة الاسكندر الأكبر فى عام ٣٢٣ حتى موقعة اكتيوم فى عام ٣١ ق.م . ولما كان أثر الحضارة الاغريقية قد ذاع حتى شمل فى ذلك العصر الأقطار التى تمتد من أسبانيا غربا حتى الصين شرقا ، وكان تناول كل هذه الأقطار بالدراسة المفصلة يتطلب دهرا طويلا ولا يتمخض عن كتاب ضخم بل دائرة معارف مطولة ، فان روستوفتزف تفادى ذلك بقصر دراسته على أكثر هـذه الأقاليم تأثرا بالحضارة الاغريقية ، ومن ثم ترك جانبا ايطاليا وصـقلية وقرطجنة فى الغرب وكل الأقاليم الواقعة الى ماوراء الدجلة والفرات فى الشرق .

ويتناول الفصل الأول التاريخ السياسى للعصر الهيلينستى فى ايجاز بليغ يبين بوضوح وجلاء الاتجاهات الرئيسية فى سياسة الدول المختلفة ، والعوامل الحاسمة التى افضت الى أهم الاحداث السياسية ، والنتائج التى تمخضت عنها سياسة روما ازاء دول الشرق الهيلينستى . ومع تقديرنا لمواهب روستوفتزف وكفايته العلمية الممتازة ، الا أننا نلاحظ أنه لم ينصف فى تقديره كفاية انيتجونوس جوناتاس السياسية ولا أخلاق بطلميوس السادس ، وأنه لم يخلف كاساندروس ابنان فقط بل ثلاثة كانوا فيليب الرابع وانتيباتروس واسكندرس الخامس .

ويعطينا الفصل الثانى وصفا موجزا للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى بلاد الاغريق والفرس قبل عصر الاسكندر الأكبر ، ويبين المؤلف فى عرض ممتاز العوامل التى افضت الى اضطراب الحياة الاقتصادية فى بلاد الاغريق ، وما كان لذلك من الأثر فى حياتها الاجتماعية ، غير أن بعض الأدلة التى استخدمها المؤلف لتصوير ذلك أحق بتصوير الحالة فى بداية العصر الهيلينستى منها بتصوير الحالة قبل عصر الاسكندر . ويقتصر المؤلف هنا على اعتبار تلك الأزمة الاقتصادية سبب القحط الذى بدأ منذ عام ٣٣١ ق.م ، لكنه يضيف الى ذلك فى الفصل الثامن سببين آخرين وهما عجز المحاصيل وأثار الحرب .

ويعالج المؤلف فى الفصول التالية (من الثالث حتى السابع) تاريخ الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى العصر الهيلينستى بطريقة جديدة . فقد درج المؤرخون حديثا فى دراسة العصر الهيلينستى على تقسيمه عادة فترتين ، لكن روستوفتزف قسم أولى هاتين الفترتين قسمين والثانية ثلاثة أقسام . ونحن نرحب بتقسيم الفترة الأولى قسمين ، فانه منذ عام ٢٢٣ حتى عام ٢٨٠ كان على الدوام أحد كبار خلفاء الاسكندر يعتبر نفسه خليفة للفاتح المقدونى العظيم ، ويحاول لم شعث امبراطوريته مما كان يدفع القواد الآخرين الى مناهضته بسبب حرص كل منهم على المحافظة على استقلال دولته . وبموت سليوكوس ، آخر أفراد الجيل الأول من خلفاء الاسكندر ، فى عام ٢٨٠ وظهور الجيل الثانى من أولئك الخلفاء استقرت فكرة قيام دول هيلينستية مختلفة على انقاض الامبراطورية المقدونية ، ووجد نوع من توازن القوى فى العالم الهيلينستى . ونحن اذ نوافق على تقسيم الفترة الثانية ثلاثة أقسام ، لا نوافق على طريقة روستوفتزف فى هذا التقسيم الذى يتلخص فى : أولا من عام ٢٢١ — ١٤٦ ؛ وثانيا من عام ١٤٦ حتى صدر القرن الأول قبل الميلاد ؛ وثالثا منذ ذلك الوقت حتى موقعة اكتيوم . حقا انه بموت سليوكوس الثانى فى

عام ٢٢٣ ، وأنيتجونوس دوسون وبطلميوس الثالث فى عام ٢٢١ تبدأ فترة جديدة تمتاز ببداية انحلال الممالك الهيلينستية واهتمام روما بالشرق الهيلينستى اهتماما متزايدا باطراد ، لكننا نرى أنه اذا كان لا بد من التقسيم فان هذه الفترة يجب ألا تمتد الى عام ١٤٦ بل يجب أن تنتهى عند عام ١٩٧ ، الذى انتصرت فيه روما على مقدونيا فى موقعة كينوسكفيلاى ، أو على الأكثر عند عام ١٨٩ ، الذى انتصرت فيه روما على سوريا فى موقعة ماجنيسيا ، وذلك لأنه منذ انتصار روما فى الموقعة الأولى لم يحدث فقط أن فقدت مقدونيا استقلالها فى الواقع بل أصبحت روما صاحبة الكلمة العليا فى السياسة الاغريقية . وعقب موقعة ماجنيسيا عقدت روما صلح اباميا فى العام التالى ، ذلك الصلح الذى مهد السبيل أمام روما لاخضاع الشرق ووطد دعائم النفوذ الرومانى فى كل أنحاء العالم الاغريقى حتى انه لم تعد منذ ذلك الوقت توجد فى ذلك العالم دولة واحدة مستقلة عن روما استقلالا تاما . ويعترف روستوفتزف نفسه بأنه منذ أصبحت روما على هذا النحو عاملا حاسما فى سياسة العالم الهيلينستى تغير تماما مظهر هذا العالم فلم يعد وحدة سياسية كما كان بل انقسم الى ثلاث وحدات (ص ٥٥) . ويحسن أن تنتهى فترة النفوذ الرومانى عند عام ١٤٧ الذى حولت فيه مقدونيا الى ولاية رومانية ، ثم تبدأ فترة الحماية الرومانية منذ عام ١٤٧ حتى عام ٣١ ق . م . فانه خلال هذه الفترة أدخلت الدول الهيلينستية الواحدة بعد الأخرى فى حظيرة الامبراطورية الرومانية . وليس هناك ما يبرر اطلاقا تقسيم روستوفتزف هذه الفترة قسمين ، فانه لم يحدث فى صدر القرن الأول ما يستدعى مثل هذا التقسيم . ومن العجيب أن مصر كانت أولى الممالك الهيلينستية التى أخذ الانحلال يدب اليها ، الا أنها كانت آخر تلك الممالك فى استيلاء روما عليها ، غير أن مصر لم تحتفظ فى الواقع منذ صدر القرن الثانى الا بظل من الاستقلال . ومما يستحق التسجيل

ان روما لم تستول على مصر الا بعد أن ألقت بلاد الفراعنة الرعب فى قلب الجمهورية الرومانية حتى انه يوم دخل أغسطس الاسكندرية أثبتت فى السجلات الرسمية أنه أنقذ روما فى ذلك اليوم من أشد المخاطر هولا !

ويصور الفصل الثالث تصويرا رائعا الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العالم الهيلينستى على عهد الاسكندر الأكبر والجيل الأول من خلفائه ، مبينا التغييرات الجارفة التى طرأت على حياة ذلك العالم ، وأثر جيوش خلفاء الاسكندر فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ونظرة الاسكندر وخلفائه الى المدن الاغريقية . ويستوقف النظر هنا أنه مع أن المؤلف يرى أن العالم الهيلينستى كان يكون فى هذه الفترة وحدة سياسية ، الا أنه تغاضى عن استخدام ما لديه من المادة فى بيان الاتجاهات الاقتصادية الرئيسية فى هذه الوحدة السياسية .

والفصل الرابع طويل الى حد أنه يكاد يكون كتابا قائما بذاته عن العالم الهيلينستى منذ عام ٢٨٠ حتى عام ٢٢١ ق . م . وينقسم هذا الفصل الى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتناول أولها بلاد الاغريق والجزر ، وثانيها الدول الكبرى (مقدونيا ومصر ودولة السليوكيين) ، وثالثها الدول الصغرى (برجامون وبيثينيا وبونتوس وباطلاجونيا وجالاتيا ودول البحر الأسود). وقد وجه المؤلف أكثر عنايته الى مصر ودولة السليوكيين وبلاد الاغريق والجزر . وبفضل كثرة الوثائق التى عثر عليها فى مصر ، استطاع المؤلف أن يصور لنا فى تفصيل أهداف البطالمة الأوائل والنظم التى استنوها لتحقيقها وحالة البلاد الاجتماعية والاقتصادية فى الجانب الأكبر من القرن الثالث . وقد صور لنا أيضا سياسة السليوكيين الاقتصادية ومحاولاتهم المحدودة فى نشر الحضارة الاغريقية ، كما صور ما طرأ على بلاد الاغريق والجزر من التغييرات الاجتماعية والاقتصادية عقب عصر الاسكندر . واذا كانت حال كل بلد من بلاد الاغريق تكاد تختلف عن الأخرى ولو الى حد ما فانها كانت بوجه عام تتفق فيما أصابها

من التدهور الاقتصادى وما تعرضت له من الاضطراب الاجتماعى . وبنهاية هذا الفصل ينتهى الجزء الأول ، وهو يقع فى ٦٠٢ صفحة من القطع الكبير ، ويضم ٦٨ لوحة وأربعة أشكال فى المتن . ولعل الأرجح ان الصورة رقم ٣ فى اللوحة السابعة والصورة رقم ٨ فى اللوحة السابعة والستين هما لديمتريوس الثانى ملك بكتريا وليستا لديمتريوس الأول .

ويبدأ الجزء الثانى بالفصل الخامس ، الذى يعالج تاريخ العصر الهيلينستى منذ ٣٢١ حتى عام ١٤٦ ق. م. وينقسم هذا الفصل قسمين رئيسيين يعطينا أحدهما صورة قاتمة لحالة بلاد الاغريق ، ويعالج الآخر الحالة فى باقى أنحاء الشرق الهيلينستى ، فيرينا أنه حين نعمت برجامون ورودس ودولة السليوكيين بالرخاء والرفاهية ، أخذت الحالة فى مصر تسير من سيء الى أسوأ . ويرى المؤلف أنه منذ عهد بطلميوس الرابع استبدل البطالمة الأواخر بسياسة السيطرة على المصريين ، التى اتبعها أسلافهم ، سياسة اشراكهم فى الحكم (ص ٧٠٦) لكننا نرى أنه لايمكن أن نستخلص من الوثائق أكثر من أن البطالمة أخذوا يفسحون أمام المصريين بعض المجال الى جانب الاغريق . وليس أدل على صحة ماذهب اليه من قول ردستوفتزف فى موضع آخر من كتابه أنه لم يدخل أى تغيير جوهرى على نظام فيلادلفوس ، وأنه على الرغم من ازدياد عدد الطبقة الحاكمة على مضى الزمن لاندماج الكثير من المصريين المتأغرقين فيها ، فقد بقيت التفرقة القديمة بين الطبقة العليا الممتازة التى تتألف من الاغريق وتضم الآن المصريين المتأغرقين وبين الطبقة الدنيا التى تتألف من سائر المصريين (ص ، ٨٨٢ — ٨٨٣) ، وأن البطالمة الأواخر لم يرغبوا أن تصبح مملكتهم دولة شرقية ، ولا أن يضعفوا نظامهم الاقتصادى الذى كان يعتمد على استغلال أهل البلاد تحت اشرافهم الدقيق (ص ١٠٧٢).

ويصور الفصل السادس الحالة فى العصر الهيلينستى فى ظل الحماية

الرومانية منذ عام ١٤٦ حتى صدر القرن الأول ، وان كان يشمل فيما يخص مصر القرن الأول أيضا حتى موقعة اكتيوم . والصورة العامة للحياة فى العالم الهيلينستى خلال هذه الفترة صورة قاتمة باستثناء ديلوس والى حد ما سوريا . ويرى روستوفتزف أن العامل الحاسم فى انهيار مصر الاقتصادى كان مشاعر الطبقات الدنيا التى رفضت التعاون مع البطالمة الأواخر فى تنفيذ نظمهم . وعندنا أن ذلك الانهيار يرجع الى عاملين أحدهما خارجى والآخر داخلى . أما العامل الخارجى فهو نفوذ روما الذى حرم مصر ممتلكاتها الخارجية فى القرن الثانى وامتص دماءها فى القرن الأول . لكنه لا يمكن مقارنة أثر هذا العامل بالعامل الداخلى، وهو حكام مصر أنفسهم . وليس من الانصاف القاء كل التبعة على البطالمة الأواخر . لقد كانوا حقا ملوكا ضعافا لكن يجب أن يشاركهم هذه التبعة البطالمة الأوائل الأقوياء الذين وضعوا نظم الحكم التى طبقها البطالمة الأواخر وأفضت الى تلك النتائج السيئة عندما رفضت جموع المصريين بطريقة سلبية أو ايجابية الاستجابة الى نداءات ملوكهم لأنهم سئموا أن يكون كل الغرم عليهم وكل الغنم لغيرهم ، ولأنهم كرهوا نظام حكم مرهق قيد حريتهم الاقتصادية وفرض عليهم ضرائب والتزامات ثقيلة . ويلاحظ أن المؤلف يذكر فى ص ٧٥٢ أن نقوش مسينى المشهورة تصور مستوى رفيعا من الرفاهية ثم يعود فى ص١١٤٧ فيقول ان نفس هذه النقوش تصور مستوى وضيعا .

ويعالج الفصل السابع الحالة فى العالم الهيلينستى فيما عدا مصر منذ صدر القرن الأول حتى موقعة اكتيوم ، مبينا فى وضوح وجلاء انهيار ذلك العالم وأثر الحكم الرومانى فى ذلك ، فان نعماء الحماية الرومانية لم تكن الا أسطورة من نسج خيال الرومان .

وأخيرا نصل الى الفصل الثامن وهو فصل مطول يكاد هو أيضا يكون كتابا مستقلا ، ولكنه فصل ممتع يعتبره المؤلف ملخصا وخاتمة

لكتابه الجليل ، ومع ذلك فانه يعالج فيه نقطا جديدة لم يعالجها من قبل. وينقسم هذا الفصل قسمين رئيسيين يتناول أحدهما أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية فى العالم الهيلينستى (وحدة هذا العالم ، والعداء بين الاغريق والشرقيين ، ونزاع الطبقات فى بلاد الاغريق) . ويتناول الآخر أبرز مظاهر الحياة الاقتصادية (السكان ورأس المال ، والمصادر الجديدة للثروة ، واستغلال المصادر الطبيعية للثروة) . وبانتهاء هذا الفصل ينتهى الجزء الثانى الذى يقع فى ٧١٠ صفحة ، ويضم ٤٤ لوحة وسبعة أشكال فى المتن .

ولا جدال فى أن هذا الكتاب النفيس الذى اختتم به رستوفتزف حياته الجامعية قد بلغ مستوى علميا لا يستطيع أن يرقى اليه اليوم الا نفر قليل ، وفى أنه أعظم مؤلف ظهر فى هذا القرن عن العصر الهيلينستى. فما أجمل الخاتمة ، وما أعظم المؤلف ، الذى يحق له أن ينظر برضى واطمئنان الى ماضيه الحافل بجلائل الأعمال .

ابراهيم نصحى